ولذلك يقال عنهم « صناديق العلم » إنْ أرادوا أنْ يعلموا ؛ فلا أحدَ من الذين يتعلمون منهم يكون فارغاً أبداً ، مثله مثل الصندوق الذى لا يفرغ .

ولا أحد يتحكم فى العاطفة الناشئة عن الغرائز إلا الله ؛ فأنت لا تقول لنفسك « اغضب » أو « اضحك » ؛ لأنه هو سبحانه الذى يملك ذلك ، وهو القائل :

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾ [النجم]

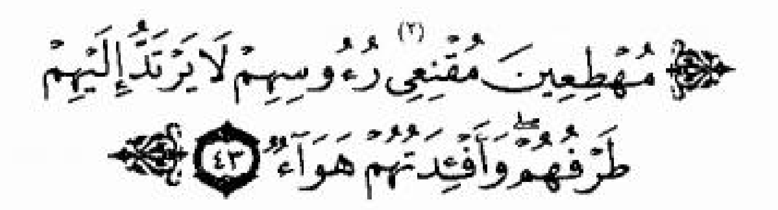
والضحك والبكاء مسائل قَسْرية لا دخلَ لأحد بها .

ونجد الحق سبحانه يقول فى موقع آخر من القرآن :

﴿ وَإِذْ زَاغَتِ[1] الأَبْصَارُ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [الأحزاب]

فمرّة تشخص الأبصار ، ويستولى الرعب على أصحابها فلا يتحولون عن المشهد المُرْعب ، ومرّة تزوغ الأبصار لعله يبحث لنفسه عن مَنْفذ أو مَهْرب فلا يجد .

ويكمل الحق سبحانه صورة هؤلاء الذين تزوغ أبصارهم ، فيقول :



---

(١) زاغ البصر : اضطرب ولم يحقق ما يرى ، أو انحرف عن القصد فلم يَرَ شيئاً . وزيغ الأبصار : اضطرابها لشدة الفزع . [القاموس القويم ١/٢٩٤] .

(٢) المقنع : الذى يرفع رأسه ينظر فى ذل . والإقناع : رفع الرأس والنظر فى ذل وخشوع . [لسان العرب ـ مادة : قنع] .

والمُهْطع هو مَنْ يظهر من فَرْط تسرُّعه وكأن رقبته قد طالتْ ، لأن المُهْطع هو مَنْ فيه طُول ، وكأن الجزاء بالعذاب يجذب المَجْزِىّ ليقربه ، فَيُدفَع فى شدة وجفوة إلى العذاب ، يقول الحق سبحانه :

﴿ يُدَعُّونَ[1] إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) ﴾ [الطور]

وكأن هناك مَنْ يدفعهم دَفْعاً إلى مصيرهم المُؤْلم . وهم :

﴿ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ .. (٤٣) ﴾ [إبراهيم]

أى : رافعين رءوسهم من فَرْط الدهشة لِهوْل العذاب الذى ينتظرهم .

وفى موقع آخر يُصوِّرهم الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ[2] فَهُم مُّقْمَحُونَ (٨) ﴾ [يس]

وهكذا تكون صورتهم مُفْزِعة من فَرْط المهانة ؛ فبصَرُ الواحد منهم شَاخص إلى العذاب مُنجذِب إليه بسرعة لا يتحكّم فيها ؛ ورأسه مرفوعة من فَرْط الهَوْل ؛ ومُقْمَح[3] بالأغلال .

---

(١) دعه يدعه : دفعه فى جفوة . والدَّعُّ : الطرد والدفع فى انتهار وزجر . [لسان العرب - مادة : دعع] .

(٢) الذقن : مجتمع اللحيين أسفل الوجه ، ويُطلق على ما ينبت عليه من الشعر مجازاً ، وقد يُطلق على الوجه كله . [القاموس القويم ١/ ٢٤٣] .

(٣) المقمح : الخاضع الذليل لا يكاد يرفع بصره . قال الأزهرى : أراد عز وجل أن أيديهم لما غُلَّتْ عند أعناقهم رفعت الأغلال أذقانهم ورؤوسهم صعداً كالإبل الرافعة رؤوسها . [لسان العرب - مادة : قمح] .

ولا يستطيع الواحد منهم أن تجفل جفونه ، وكأنها مفتوحةٌ رَغْماً عنه ؛ وفؤاده هواء بمعنى : أنْ لا شيءَ قادرٌ على أن يدخله .

ونحن نلحظُ ذلك حين نضع زجاجة فارغة في قلب الماء ؛ فتخرج فقاقيع الهواء مقابلَ دخولِ الماء من فُوهتها .

ونعلم أن قَلْب المؤمن يكون ممتلئاً بالإيمان ؛ أما الكافر المُلْحد فهو في مثل تلك اللحظة يستعرض تاريخه مع الله ومع الدين ؛ فلا يجد فيها شيئاً يُطمئِن ، وهكذا يكتشف أن فؤاده خَالٍ فارغ ؛ لا يطمئن به إلى ما يُواجه به لحظة الحساب .

ونجد بعضاً ممَّنْ شاهدوا لحظات احتضار[1] غيرهم يقولون عن احتضار المؤمن « كان مُشرِق الوجه متلألىء الملامح » . أما ما يقولونه عن لحظة احتضار الكافر ؛ فهم يحكُونَ عن بشاعة ملامحه في تلك اللحظة .

والسبب في هذا أن الإنسان في مثل هذه اللحظات يستعرض تاريخه مع الله ، ويرى شريط عمله كله ؛ فمَنْ قضى حياته وهو يُرضِي الله ؛ لابُدَّ أن يشعر بالراحة ، ومَنْ قضى حياته وهو كافر مُلْحد فلابُدَّ أن يشعرَ بالمصير المُرْعب الذي ينتظره .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

---

(١) حُضِر المريض واحتُضِر : إذا نزل به الموت ودنا منه أجله . [لسان العرب ـ مادة : حضر] .

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ[1] (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ[2] (٢٥)﴾ [القيامة]

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ (٤٤)﴾

وهذا خطاب من الحق سبحانه لرسوله ﷺ أن يُنذرهم بضرورة الاستعداد ليوم القيامة ، وأنه قادمٌ لا محالةَ .

وكلمة « يوم » هى ظَرْف زمان ، وظرف الزمان لا بُدَّ له من حَدث يقع فيه ، ويوم القيامة ليس محلَّ إنذار أو تبشير ؛ لأن الإنذار أو البِشارة لا بُدّ أنْ يكونا فى وقت التكليف فى الحياة الدنيا .

وهكذا يكون المُنْذر به هو تخويفهم ممّا يحدث لهم فى هذا اليوم ، فما سوف يحدث لهم هو العذاب ؛ وكأنه قنبلة موقوتة ما إنْ يأتى يوم القيامة حتى تنفجر فى وجوههم .

وهنا يقول أهل ظُلْم القمة فى العقيدة ، وظُلْم الرسالة بمقاومتها ؛ وظلم الكون المُسبِّح لله :

﴿رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ .. (٤٤)﴾ [إبراهيم]

---

(١) باسرة : كالحة عابسة كناية عن الهم والغم والخوف الشديد . [القاموس القويم ١/٦٦].

(٢) الفاقرة : الداهية تكسر فقار الظهر . [القاموس القويم ٢/٨٦] .

وهم يطلبون تأجيل العذاب لمُهْلة بسيطة ، يُثبتون فيها أنهم سيُجيبون الدعوة ويطيعون الرسول ، وهم يطلبون بذلك تأجيل قيامتهم .

فيكون الجواب من الحق سبحانه :

﴿ أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ (٤٤) ﴾ [إبراهيم]

فأنتم قد سبق وأنْ أقسمتُم بأن الله لا يبعث مَنْ يموت ؛ وقد قال الحق سبحانه ما قلتم :

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ .. (٣٨) ﴾

[النحل]

وساعة ترى كلمة « بلى » بعد نَدْب ، فهذا يعنى تكذيب ما جاء قبلها ، وهم فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ظَنُّوا أنهم لن يُبعثُوا ، وظنُّوا أنهم بعد الموت سيصيرون تراباً ؛ وهم الذين قالوا :

﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) ﴾

[المؤمنون]

وهكذا أكّدوا لأنفسهم أنه لا بَعْث من بَعْد الحياة ، ومن بعد البعث سنسمع من كل فرد فيهم :

﴿ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا (٤٠) ﴾ [النبأ]

أو : أنهم ظنُّوا أن الذين أنعَم الله عليهم فى الدنيا ؛ لن يحرمهم فى الآخرة ، كما أورد الحق سبحانه هذا المَثل ، فى قوله تعالى :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ[1] مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦) ﴾ [الكهف]

والذى يقول ذلك فَهِم أنه سوف يموت ؛ لكنه توهَّم أن جنته تلك ستظل على ما هى عليه ، وأنكر قيام الساعة ، وقال : « حتى لو قامت الساعة ، ورُددتُ إلى الله فسأجد أفضل من جنتى تلك » .

وهو يدعى ذلك وهو لم يُقدِّم إيماناً بالله ليجده فى الآخرة ، فهو إذن ممَّنْ أنكروا الزوال أى البعث من جديد ، ووقع فى دائرة مَنْ لم يُصدِّقوا البعث ، وسبق أنْ قال الحق سبحانه ما أورده على ألسنتهم :

﴿ أَئِذَا ضَلَلْنَا[2] فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٠) ﴾ [السجدة]

والذين أنكروا البعث يُورِد الحق سبحانه لنا حواراً بينه وبينهم ، فيقول سبحانه وتعالى :

﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ (١١) ﴾ [غافر]

(١) الجنة : حديقة ذات شجر كثير ملتف يستر الأرض . [القاموس القويم ١/ ١٣٣] .

(٢) ضل فى الأرض : مات وصار تراباً فَضَلَّ فلم يتبين شىء من خلقه . [لسان العرب - مادة : ضلل] .

فيرد الحق سبحانه عليهم :

﴿ ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (١٢) ﴾ [غافر]

وفى موقع آخر من القرآن نجد حواراً واستجداءً منهم لله ؛ يقولون :

﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا .. (١٢) ﴾ [السجدة]

ويأتى رَدُّ الحق سبحانه عليهم :

﴿ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ ..(١٤) ﴾ [السجدة]

وفى موقع ثالث يقول الواحد منهم عند الموت :

﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ .. (١٠٠) ﴾

[المؤمنون]

فيأتى ردّ الحق سبحانه :

﴿ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ..(١٠٠) ﴾ [المؤمنون]

وبعد دخولهم النار يقولون :

﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (١٠٧) ﴾ [المؤمنون]

فيقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ اخْسَئُوا[1] فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ (١٠٨) ﴾ [المؤمنون]

(١) اخسأوا : انزجروا وابعدوا عنى فى النار ولا تكلمونى . [القاموس القويم ١/١٩٢] والخاسىء : الصاغر الذليل . [المعجم الوجيز ـ مادة : خسأ] .

وفى موضع آخر يقولون عند اصطراخهم[1] فى النار :

﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ..(٣٧) ﴾ [فاطر]

فيأتى الرد من الحق سبحانه :

﴿ أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (٣٧) ﴾ [فاطر]

ونلحظ أنهم فى كل آيات التوسُّل لله كى يعودوا إلى الحياة الدنيا يقولون (ربنا) ، وتناسَوْا أنهم مأخوذون إلى العذاب بمخالفات الألوهية ؛ ذلك أن الربوبية عطاؤها كان لكم فى الدنيا ، ولم ينقصكم الحق سبحانه شيئاً على الرغم من كفركم .

هكذا يكون حال هؤلاء الذين أقسموا أن الحق سبحانه لن يبعثهم ، وأنكروا يوم القيامة ، وأنه لا زوال لهم . أى : لا بَعْث ولا نشور .

ويتابع الحق سبحانه القول الكريم :

﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ[2] وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ (٤٥) ﴾

والسكون هو الاطمئنان إلى الشىء من عدم الإزعاج ، ونعلم أن

---

(١) اصطرخ القوم وتصارخوا : استغاثوا . والاصطراخ : التصارخ . [لسان العرب ـ مادة : صرخ] .

(٢) قال قتادة : سكن الناس فى مساكن قوم نوح وعاد وثمود . وقرون بين ذلك كثيرة ممن هلك من الأمم . [الدر المنثور ٥/٥٢] .

المرأة فى الزواج تعتبر سكناً ، والبيت سكن ، وهنا يتكلم الحق سبحانه عن مساكن الذين ظلموا أنفسهم ، أى : أنكم لم تتعظُوا بالسوابق التى ما كان يجب أن تغيبَ عنكم ، فأنتم تمرون فى رحلات الصيف والشتاء على مدائن صالح ، وترون آثار الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك ، وتمرون على الأحقاف[1] ؛ وترون ماذا حاقَ بقوم عاد .

وكُلٌّ أولئك نالوا العقاب من الله ، سواء بالريح الصرصر[2] العاتية ، أو : أنه سبحانه قد أرسل عليهم حاصباً[3] من السماء ، أو : أنزل عليهم الصيحة ؛ أو : أغرقهم كآل فرعون ، وأخذ كل قوم من هؤلاء بذنبه .

وصدق الله وَعْده فى عذاب الدنيا ؛ فلماذا لم تأخذوا عِبْرة من ذلك ؛ وأنه سبحانه وتعالى صادق حين تحدَّث عن عذاب الآخرة ؟

وهنا قال الحق سبحانه :

﴿ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ .. (٤٥) ﴾ [إبراهيم]

وفى آية أخرى يقول سبحانه :

﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٣٨) ﴾ [الصافات]

---

(١) الأحقاف : منازل قوم عاد بظاهر بلاد اليمن . والحقف من الرمل : المتعرج أو المستطيل أو المستدير من الرمل . [القاموس القويم ١/١٦٣] بزيادة .

(٢) الريح الصرصر : الشديدة البرد . وقيل : الشديدة الصوت . [لسان العرب - مادة : صرر] .

(٣) حصبه : قذفه بالحصى . والحاصب : إعصار شديد يقذفكم بالحصى فيهلككم . [القاموس القويم ١/١٥٦] .

أى : أنكم تمرُّون على تلك الأماكن التى أقامها بعضٌ ممَّنْ سبقُوكم وظلمُوا أنفسهم بالكفر ؛ وأنزل الحق سبحانه عليهم العقاب ؛ ولذلك يقول فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ (٤٥) ﴾ [إبراهيم]

نعم ؛ فحين تمشى فى أرض قوم عاد ، وترى حضارتهم التى قال عنها الحق سبحانه :

﴿ إِرَمَ[1] ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨) ﴾ [الفجر]

وهى حضارة لم نكتشف آثارها بعد ؛ وما زالت فى المطمورات ، وكل مطمور فى الأرض بفعل من غضب السماء ؛ تضع السماءُ ميعادَ كشف له ليتعظَ أهلُ الأرض ؛ ويحدث هذا الكشف كلما زاد الإلحاد واستشرى .

قد حدث أن اكتشفنا حضارة ثمود ، وكذلك حضارة الفراعنة ؛ وهى الحضارة التى سبقتْ كل الحضارات فى العلوم والتكنولوجيا ، ورغم ذلك لم يعرف أصحاب تلك الحضارة أن يصونوها من الاندثار الذى شاءه الله .

وما زال الناس يتساءلون : لماذا لم يترك المصريون القدماء خبرتهم الحضارية مكتوبة ومُسجّلة فى خطوات يمكن أن تفهمها البشرية من بعد ذلك ؟

---

(١) إرم : اسم قبيلة منها عاد ـ وقيل هى مدينة كبيرة لهم ـ وزعم الكندى فى كتابه فضائل مصر : أنها مدينة الإسكندرية . وقوله : (ذات العماد) يدل على أنها ذات حضارة ومبان عالية . [القاموس القويم ١/ ١٨] .